الأيادي

أعـــوام من الإســـــراء

عادل عزت

الأيادي

أعوام من الإسراء

المؤلف : عادل عزت

الطبعة الأولى : القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب : 3063 / 2012

جميع الحقوق محفوظة

- 1 -

وُجُوهٌ أراهَا . أَأَعْرِفُهُمْ ؟ أمْ هوَ الليلُ خَبَّأَهُمْ ؟ أمْ هِيَ النَّفْسُ قَدْ ذَهَبَتْ في وجُودٍ غَريبْ ؟

شَعَرْتُ بِهِمْ يَهْمِسونَ بأنِّي جُنِنْتُ فقُلْتُ لنَفْسِيَ لَو سَألُوني لأخْبَرْتُهُمْ دونَمَا خَجَلٍ أنَّني قَدْ جُنِنْتُ ... أُطِيلُ البَقاءَ هناكَ لَدَىٰ عَتَمَاتٍ بِها شُهُبٌ ، وطُيورٌ مُهَاجِرَةٌ ، وبَخُورٌ يَمُتُّ لِعَهْدٍ سَحِيقْ .

أليسَ الجُنونُ أماكِنَ نائِيَةً هامَ فِيها الكَثِيرُ مِنَ الحالِمينَ ، ومَنْ رَجَعوا للطُّفُولَهْ ؟!

أريدُ الذَّهابَ إلى عُزلَةٍ تَتَناغَمُ فِيها المَشَاعِرُ ، حِينَئِذٍ أخْتَفِي عَنْ وجُودي ، وأشْعُرُ أنِّي خَمِيلَهْ .

لِماذا التي كُنْتُ أعْشَقُهَا قَدْ مَضَتْ؟ إنَّهَا الوَرْدَةُ الأبَدِيَّةُ أعْطَتْ لجِسْمِي مَفَاتِنَها ، واخْتَفَتْ . قَطَفَتْهَا يَدٌ ، وأنا جاهِلٌ بالوُرُودْ .

فَـرَاحَتْ إلـى ذلِـكَ الأَسْـرِ راضِـيَـةً .
هِـيَ مِـثْـلُ الـذي يَـتَـتَـبَّـعُ نُـورَ
الـسَّـرابْ .

فَـكَـيْـفَ أَراها ؟ وكَـيْـفَ أُريـهَـا هُـيَـامِـي
بِـهَـا ثُـمَّ أَسْـأَلُـهَـا أنْ تَـعُـودْ ؟!

تَـدَاخَـلَـتِ الـذِّكْـرَيَـاتُ فَـصَـارَ صِـبَـايَ
قَـريـبًـا ، ولاحَ الـذيـنَ يَـعِـيـشـونَ حَـوْلِـي
طُـيُـوفًـا ، وثَـمَّـةَ هَـمْـسٌ يَـقـولُ : " تَـعَـالَ
مَـعِـي قَـبْـلَ أنْ تَـتَـقَـدَّمَ نَـحْـوَ
النِّـهـايَـهْ ."

فأعْطَيْتُ نَفْسِي إلىٰ صَفَحَاتِ كِتَابٍ مِنَ الشِّعْرِ كانَ يُوَحِّدُ بَيْنَ الظَّلامِ الذي في الكُهُوفِ ، وبَيْنَ الظَّلامِ الذي يَعْبُرُ المَلَكُوتْ .

فَصِرْتُ لَدَىٰ الليلِ ظِلاًّ ، وحَوْلِي هُنا وهُناكَ ظِلالٌ ، وكُنَّا نَزُولُ جَمِيعًا إذا ذَهَبَ البَدْرُ خَلْفَ سَحَابَهْ .

رأيْتُ لآلِئَ في البُعْدِ صارَتْ تُشِعُّ وتَمْضِي فَلَمَّا تَقَدَّمْتُ لاحَتْ مَسَاكِنُ أصْحابُهَا يَحْلُمونْ .

أرادُوا التَّسَامِي ، ويَمْنَعُهُمْ أنَّ أجْسامَهُمْ تَتَحَرَّكُ مأسُورَةً في الوجودْ .

تَمَنَّيْتُ لَو كُنْتُ مِنْهُمْ فقُلْتُ سآتِي إليْكُمْ إذا اجْتَزْتُ ما بَيْنَنَا مِنْ غَمَامَهْ .

لَقَدْ سَمِعُونِي وما سَمِعُونِي ، وها جاءَنِي نَغَمٌ تَتَلاقَى دَقَائِقُهُ بأناشِيدَ صاعِدَةٍ فاقْتَرَبْتُ بِروحِي مِنَ الرَّفْرَفَاتِ البَعِيدَهْ .

لَقَدْ صَارَتِ النَّفْسُ جُزءًا مِنَ اللَيلِ
حَتَّى أَفَقْتُ عَلَى صَوْتِ أُمِّي تُكَلِّمُنِي
وهْيَ واقِفَةٌ خَلْفَ بابِي ... " لَقَدْ
زِدْتَ بُعْدًا عنِ اللهِ والنَّاسِ مُنْذُ
رَحيلِكَ نَحْوَ القِرَاءَهْ . "

وها هِيَ تَسْألُنِي أنْ أنامْ .

- 2 -

جِدارٌ قَدِ امْتَدَّ في البَهْوِ يَحْمِلُ صُورَةَ جَدِّي اللِّواءْ .

ومِنْ حَوْلِها صُوَرٌ تَتَزاحَمُ تَحْكِي تَفَاصِيلَ أيَّامِهِ مُنْذُ أنْ كانَ شابًّا يَخُوضُ الحُروبَ إلى أنْ تَحَوَّلَ نَحْوَ الثَّراءْ .

وها هُوَ مُبْتَسِمٌ بَيْنَ بَعْضٍ مِنَ الوزَراءِ بِقَصْرِ الرئيسْ .

جَنَى مِنْ شِراءِ وبَيْعِ الأراضي مِئاتِ المَلايينِ ثُمَّ قُبَيْلَ المَمَاتِ تَلاشَتْ عَزِيمَتُهُ بَغْتَةً فمَضَى تارِكًا ثَرْوَةً ليسَ ثَمَّةَ مَنْ يَتَتَبَّعُ آثارَها . ضاعَ ما ضاعَ أمَّا الذي قَدْ تَبَقَّى فَيَكْفِي البَنينَ مِئاتِ السِّنينْ .

تَوَزَّعَتِ الثَّرَواتُ خِلالَ المَسافاتِ ، وانْتَثَرَتْ في البِلادْ .

قُصُورٌ ، مَزارِعُ شاسِعَةٌ بأماكِنَ شَتَّى ، أراضٍ ، يُخُوتٌ ، خَزائِنُ إنْ فُتِحَتْ أظْهَرَتْ للعُيونِ كَمَائِنَ مِنْ خَدَرٍ ووُعودْ .

رأيْتُ الوُجوهَ بِها رَهْبَةٌ بَعْدَ أنْ كَشَفَ الضَّوْءُ ما يَحْتَويهِ الظَّلامُ النَّفيسْ .

طُقوسُ الوِراثَةِ قَدْ فَرَّقَتْ بَيْنَ أبنائِهِ . آهِ ما كُنْتُ أعْرِفُ أنَّ الحَقاراتِ تَمْكُثُ مَعْزُولَةً في النُّفوسْ .

وها هي تَخْرُجُ للنورِ دونَ مُوارَبَةٍ ، وبِغَيْرِ انْتِهاءْ .

خَناجِرُ قَدْ خَبَّأَتْها السَّراديبُ عاماً فعاماً . هِيَ الآنَ قَدْ بَدَأتْ في الحَنينِ لسَفْكِ الدِّماءْ .

مئاتُ الحِكاياتِ ضاعَتْ بِقَبْرِكَ يا أيها الجَدُّ يا مَنْ لَهَثْتَ وراءَ الثَّراءِ ، وأوْرَثْتَنَا ثَرَواتٍ تُصيبُ الذي يَتَتَبَّعُها باللُّهاثْ .

أكانَ وجُودُكَ مَحْضَ انْجِذابٍ وراءَ سَرابٍ يُسَمَّى النَّعِيمْ ؟!

وهَلْ جاءَ يَوْمٌ عَلَيْكَ فقُلْتَ لنَفْسِكَ : " ماذا أريدْ ؟!

لَدَيَّ حُشُودٌ مِنَ المالِ قَدْ حاصَرَتْنِي ، وما عادَ عِنْدِيَ عُمْرٌ لأنْفِقَها ، والكوابِيسُ تُخْبِرُنِي أنَّها بَعْدَ مَوْتِيَ سَوْفَ تَبِيدْ .

تَـمَـادَيْـتُ عَـبْـرَ حَـيَـاةٍ تَـصَـارَعَـتِ
الرَّغَـبَـاتُ بِـهـا ، وتَـشَـتَّـتَ قَـلْـبِـيَ بَـيْـنَ
الـتَّـفَـاصِـيـلِ ... قَـدْ أثْـقَـلَـتْـنِـي
الـعـيـونُ الـتـي حَـسَـدَتْـنِـي ... أمَـا آنَ
لِـي أنْ أُغَـافِـلَ هذا الـزِّحَـامَ ، وأتْـرُكَـهُ ،
وأعـودْ ؟ "

أُلُوفُ الشُّجَيْراتِ ماتَتْ ، وها هو جَدِّي يَجِيءُ إليَّ بحُلْمٍ . يَسِيرُ خِلالَ غُيُومِ النَّهارِ ، ومِنْ خَلْفِهِ وَسْوَسَاتٌ وبَعْضُ الرءوسْ .

تَقَرَّبَ مِنِّي وقالَ : " لَقَدْ كُنْتُ مُسْتَرْسِلاً في الطُّمُوحِ ، وصِرْتُ هُنا عائِشًا في النُّعَاسْ .

وهذا عِقَابٌ يَفُوقُ الجَحِيمْ . "

فقُلْتُ لَهُ لا تَخَفْ . إنَّ عُمْرَكَ تَحْتَ التُّرابِ رُجوعٌ إلى حالَةٍ تَتَصارَعُ فيها الخَلايا بلا غَايَةٍ مُنْذُ أنْ كانَتِ الأرضُ تَخْلو مِنَ الكائناتِ خِلالَ الزَّمانِ القَديمْ .

وساءَلْتُهُ كَيفَ غِبْتَ ورُحْتَ بَعِيدًا وأنتَ لَدَيْكَ الخَفَايَا ؟ أرادَ الإجابَةَ لكنني قَدْ صَحَوْتُ عَلَى صَرَخَاتِ أبِي وهْوَ يَشْتُمُ خادِمَةً ، ويُحَطِّمُ بَعْضَ الكُئوسْ .

- 3 -

أبِي فاقِدُ الحِلْمِ ، مُسْتَهْتِرٌ بِمَشاعِرِ مَنْ يَعْمَلُونَ لَدَيْهِ ، ويَمْلِكُ بَعْضَ الطَّرَافَهْ .

لِسَانٌ فَتِيٌّ بِهِ كُلُّ لَفْظٍ شَنِيعٍ ، ولا .. لا يَكَادُ يُخَبِّئُ سِرًّا فَصَادَقَهُ مَنْ أضاعوا كرامَتَهُمْ . هُمْ يُحِبُّونَ أنْ يَطْلُبوا عَشَرَاتِ القُروضِ التي لا يَرُدُّونَها . إنَّها صَفْقَةٌ : يَأخُذونَ مِنَ المَالِ ما يَأخُذونَ لِقاءَ الإهانَهْ .

أبِـي لا يَـنَـامُ إلى أنْ يَـحُـلَّ الضُّـحَـى . إنَّ نَـشْـوَتَـهُ سَـهَـرٌ صاخِـبٌ ، ونَـمـيـمَـهْ .

ومُـنْـذُ صِـبَـاهُ يُـمَـثِّـلُ أدْوارَ شَـرٍّ وأدْوارَ خَـيْـرٍ وحـيـدًا بـغُـرْفَـتِـهِ ... وَجْـهُـهُ يَـخْـتَـلِـي بـالـمَـرَايَـا يُـجَـوِّدُ ألـفـاظَـهُ ومَـشـاعِـرَهُ ، ويُـضَـيِّـعُ مِـنْـهُ الـشُّـهـورْ .

فـكـانَ الوَحـيـدَ الـذي بَـيْـنَ إخْـوَتِـهِ قَـدْ أتَـاهُ الرُّسـوبْ .

تَراءَىٰ الوجودُ لعَيْنَيْهِ ناسًا تَعيشُ خِلالَ الرِّواياتِ . هُمْ في بَقَاءٍ ، وأمَّا الذينَ يَمُوجونَ مِنْ حَوْلِهِ في الحَيَاةِ فلَيْسَ لَهُمْ مِنْ وُجودْ .

ومُنْذُ طُفُولَتِهِ قَدْ رَأىٰ كُلَّ إخْوَتِهِ خَضَعوا لِتَعالِيمِ جَدِّي وقَسْوَتِهِ . كانَ يَبْكي مِنَ الظُّلْمِ حَتىٰ تَمَرَّدَ يَومًا وقالَ : " أنا لا أحِبُّ الدِّراسَهْ ."

فَفَرَّ مِنَ البَيْتِ شابًّا ، وصارَ أجيرًا لَدَىٰ المُنْتِجِينَ . يُمَثِّلُ بِضْعَ ثَوانٍ هُنا وهُناكَ لِقَاءَ القَلِيلِ الذي كانَ يَجْعَلُهُ لا يَموتْ .

وبَعْدَ مُرُورِ السِّنِينَ تَفَرَّقَ أبناءُ جَدِّيَ ... كُلٌّ يَلُوذُ بأَسْرَتِهِ . يَنْعَمُوْنَ بأمْوالِهِ دونَ أنْ يأْبَهُوا بِمَشَاعِرِهِ . تَرَكُوهُ وحيدًا يَعِيشُ بقَصْرٍ يُحاصِرُهُ بالزَّخَارِفِ ، والبَرْدِ ، والخَوْفِ ... أمَّا الكوابِيسُ فهْيَ الضُّيوفُ المُقيمَهْ .

فـراحَ لأصْـغَـرِ أبـنـائِـهِ الـهـارِبِ المُتَمَرِّدِ ، والمُنْتَمِي لحَيَاةٍ لَها صِلَةٌ بالشُّخُوصِ المُرِيبَهْ .

رآهُ حَقيرًا عَبُوسًا فقالَ لَهُ عُدْ فعادَ ، وأمِّي بصُحْبَتِهِ تَتَحَيَّرُ غَيْرَ مُصَدِّقَةٍ بذَهابِ الحياةِ الفَقِيرَهْ .

رآني – وكُنْتُ صَبِيًّا – فصارَ كَمَنْ يَتَذَكَّرُ عَهْدًا بَعيدًا ... شَكَا أنَّ أبناءَهُ خامِلونَ ، وظَنَّ بأنِّي خَليفَتُهُ ثُمَّ قالَ : " لَعَلَّكَ مَنْ سَيُكَرِّرُ مَجْدِي ، ويَجْعَلُ عائِلَتي تَسْتَحِقُّ الخُلودْ ."

وبَعْدَ أسابيعَ أعْطَى أبِي ما أرادَ مِنَ المالِ حَتَّى يُغَيِّرَ هَيْئَتَهُ المُزْدَراةَ ، ويَدْخُلَ في زُمْرَةِ المُنْتَجِينْ .

وكنَّا جَميعًا نُحِسُّ بأنَّ الحَياةَ سَتَغْدو جَمِيلَهْ .

- 4 -

صَبِيًّا أتَيْتُ إلى القَصْرِ مُنْفَصِلاً
عَنْ حَياةِ الدُّروبِ الفَقيرَهْ .

بِهَذا افْتَقَدْتُ تَزاحُمَ أصواتِها ،
واخْتِلاطَ روائحِها ، واشْتِباكَ العَلاقاتِ
بَيْنَ النُّفوسِ ، وأشْواقَ مَنْ يَعْبُرونَ
الزِّحامْ .

أتَـيْـتُ إلى الصَّـمْـتِ ، والسَّـيْـرِ عَـبْـرَ الفَـخَـامَـةِ تَـحْـتَ الـثُّـرَيَّـاتِ وحْـدِي . لِـمـاذا زيارتُـنـا بَـيْـتَ جَـدِّيَ لا تَـنْـتَـهِـي ؟ ومَـتَـى سـأعـودُ إلـى أصْـدِقـائِـي لأُخْـبِـرَهُـمْ بأعـاجـيـبِ هَـذِي الـزِّيـارَهْ ؟

لَـقَـدْ كـانَ جَـدِّيَ حِـيـنَ يَـرانِـي يُـحَـدِّثُـنِـي عَـنْ بُـطُـولَـتِـهِ وصِـراعـاتِـهِ . إنَّ حُـبًّا يُـجَـمِّـعُـنـا ، وأنـا أتَـعَـجَّـبُ أنِّـيَ حِـيـنَ أُجـالِـسُـهُ أتَـجَـوَّلُ فـي عَـشَـراتِ الـسِّـنِـيـنَ الـغَـريـبَـهْ .

ويَومًا رأيتُ بعَيْنَيْهِ بَعْضَ الأسَى
وهْوَ يَنْظُرُ لِي قائلاً : " يا حَفِيديَ
أنتَ صَديقي الوَحِيدْ ."

ويَومًا رأيتُ ابْتِسامَةَ أُمِّيَ
وهْيَ تَقولُ لخادِمَةٍ إنَّ جَدِّيَ
حِينَ يُحَدِّثُني يَتَحَوَّلُ مِثْلي
صَبِيًّا ، ويَرْجِعُ نَحْوَ الحَياةِ
النَّبيلَهْ .

- 5 -

فُضُولٌ ، وثَرْثَرَةٌ ، وابْتِهَاجٌ ، وخَوْفٌ مِنَ الغَيْبِ مَمْلَكَةُ الخادِمَاتْ .

كَثِيرٌ مِنَ الكَلِماتِ تَمُرُّ بِسَمْعِيَ إذْ يَتَكَلَّمْنَ عَنَّا . يَخُضْنَ بأحوالِ أمِّي ، وعَجْرَفَةٍ لا تُفارِقُ جَدِّي .

تَمَنَّيْنَ أنْ يَبْعَثَ اللهُ بَعْضَ المَهالِكِ نَحْوَ أبِي ... كانَ يَضْرِبُهُنَّ عَلَى الهَفَواتْ .

أرادَ التَّصابِي بصَبْغِ الشُّعَيْراتِ
في رأسِهِ ، وأرادَ لَهُ اللهُ وَجْهًا
يَلُوحُ كَلِصٍّ ، وسَوْفَ تَكونُ نِهَايَتُهُ
أنْ يَمُرَّ قِطَارٌ عَلَيْهِ فَيَدْهَسَهُ
ثُمَّ يُطْلِقَ فَرْحَتَهُ في الهَواءِ صَفيرًا
يُدَوِّي .

وماذا يَقُلْنَ بشَأني ؟ أنا هادِئٌ طَيِّبُ
القَلْبِ . لَيْسَتْ لَدَيْهِنَّ شَكْوَىٰ سِوَىٰ
أنَّني نَهِمُ النَّظَراتْ .

أرَىٰ بَعْضَهُنَّ يُصَادِقُ أمِّي .

لَدَيْها قليلٌ مِنَ العِلْمِ مُمْتَزِجٌ بالتَّدَيُّنِ . كانَتْ تُطيلُ المُكوثَ إلى شاشَةِ البَيْتِ حَيْثُ تَخوضُ بِلا مَلَلٍ في جُنوحِ الشُّيوخِ إلى المُعْجِزاتْ .

رأيْتُ لَهَا صُوَرًا فرَأيْتُ صِبَاها . لَدَيْها جَمَالٌ يُنَاقِضُ بؤسًا أحاطَ بِها . إنَّها الآنَ تَرْنُو لِصُورَتِها وتَقُولُ : " لَقَدْ أنْقَذَ اللهُ رُوحِيَ في هَذِهِ السَّنَواتْ " .

أمُرُّ بِهَا فَأراها بُعَيْدَ الصَّلاةِ تُطِيلُ الدُّعَاءْ .

أتَشْعُرُ أنَّ هناكَ ذُنوبًا ألَمَّتْ بِها مِنْ سِنينَ فَتَطْلُبَ مَغْفِرَةً وهْيَ تَبْكي ؟

لَقَدْ دَفَعَتْها مَقاديرُها ، وطُموحُ قَليلٌ يُخالِجُها أنْ تَصيرَ مُمَثِّلَةً ، ثُمَّ بَعْدَ شُهورٍ رَأتْ أنَّهَا كَرِهَتْ أنْ تَكونَ مُمَثِّلَةً ... حِينَذاكَ أحَبَّتْ زَميلاً لَهَا ورَأتْهُ مُخَلِّصَها فاسْتَدانَ لِكي يَتَزَوَّجَها ، وانْتَهَى الحُبُّ بَيْنَهُمَا بَعْدَ أنْ أنْجَبَتْنِي .

غَرائِبُهُ ومَصائِبُهُ كالجَراثيمِ تَذْهَبُ مَيِّتَةً ثُمَّ تَرْجِعُ نابِضَةً في الهَواءْ .

رآني رَضِيعًا فأدرَكَ أنَّ الأبوَّةَ سِرٌّ جَليلٌ ولكنَّهُ قَدْ تَجاهَلَ أمِّي . رآها مُرَبِّيَةً . لَمْ يُحاولْ ولَوْ مَرَّةً أنْ يُعاشِرَها . لَمْ تَعُدْ بِفَتَاةٍ ، وكانَ أبِي لا يُحِبُّ سِوَىٰ الفَتَياتْ .

- 6 -

أُحِسُّ بأصْواتِ خَطْوٍ بمُنْتَصَفِ اللَّيْلِ في قَصْرِنَا ، وهنالِكَ بَعْضٌ مِنَ الهَمَسَاتْ .

فرُحْتُ إلى مَبْعَثِ الصَّوْتِ ثُمَّ أضَأتُ المَصابيحَ في وَجَلٍ فَتَراءَتْ ثَلاثٌ مِنَ الخَادِماتْ .

تَسَمَّرْنَ حَينَ نَظَرْنَ إليَّ ، وها هُنَّ يَجْرينَ في فَزَعٍ . قَدْ رَأَيْتُ أمامي فَوْضَى ... لَقَدْ كُنَّ يَفْتَحْنَ دُرْجًا فدُرْجًا ... عَلَى الأرْضِ تَبْدو سَكاكينُ مِنْ فِضَّةٍ ، ومَلاعِقُ زَيَّنَها ذَهَبٌ ..... آهِ جِئْنَ بلَيْلِ المَكانِ لِيَسْرِقْنَ بَعْدَئِذٍ يَتَسَلَّلْنَ كالهارِباتْ .

فأيْقَظْتُ أمِّي ، وأخْبَرْتُها بتَفاصيلِ ما مَرَّ بِي وأنا في انْفِعالٍ فَلَمْ تَنْدَهِشْ . أخْبَرَتْني بأنَّ لَدَيْنا الكَثيرَ وقالَتْ : " نَعيشُ ومِنْ حَولِنا ثَرَواتٌ مُخَبَّأَةٌ ، ولسَوْفَ تَظَلُّ كذلِكَ باقِيَةً ومُكَدَّسَةً في أماكِنِها لا نَراها إلى أنْ نَموتْ .

ولَسْتُ أظُنُّ بأنَّكَ سَوْفَ تَبوحُ بتِلْكَ الأمورِ لجَدِّكَ أو لأبيكَ فإنَّهُما في انْعِزالٍ عَنِ الفُقَراءْ .

حَيَاتي هُنَا لَسْتُ أفْهَمُها فإذا ما ذَهَبْتُ لأهلِيَ زائِرَةً أخْرَجَتْنِيَ مِنْ غُرْبَتِي ضَجَّةُ النَّاسِ والأقْرِباءْ .

فألْهَمَنِي اللَّهُ أنْ أتَقَرَّبَ مِنْهُمْ فعالَجْتُ مَرْضَىٰ ، وزَوَّجْتُ راضِيَةً عَشَراتٍ مِنَ الفَتَيَاتْ . "

رأيتُ ابْتِسَامَتَها قَد أضاءَتْ ضَميري ، وها هِي تَضْحَكُ مِنْ حَيْرَتِي وتَقُولُ : " إذا بُحْتَ بالسِّرِّ قُلْ إنَّ أمِّيَ قَدْ عَلَّمَتْنيَ أنْ أتَغاضَىٰ عَنِ السَّارِقاتْ ."

- 7 -

بجامِعَتِي قَدْ تَفَوَّقْتُ في كُلِّ شَيءٍ ، وزادَ اغْتِرابِي .

أَحَطْتُ بِمَا كانَ يُطْلَبُ مِنِّيْ بِغَيْرِ مُكَابَدَةٍ وبوَقْتٍ قَصِيرٍ ، وها واحِدٌ مِنْ أساتِذَتي قَدْ وَعَيْتُ نَصيحَتَهُ فانْضَمَمْتُ إلى زُمَلاءٍ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ أصدِقاءَ القِراءَةْ .

هناكَ رأيْتُ الذي يَتَجَاهَلُني ، ولَمَحْتُ الذي كانَ يُبْدِي احْتِجَاجًا بنَظْرَتِهِ . لَكَأنَّ وجُودي أهَانَ كَرَامَتَهُمْ غَيْرَ أنِّي تَعَمَّدْتُ ألا يَلُوحَ اضطِّرابِي .

لَجَأْتُ لِمَا كُنْتُ أمْلِكُهُ مِن تَواضُعِ نَفْسٍ ، ووَجْهٍ تَلُوحُ السَّمَاحَةُ فيهِ لأُقْنِعَهُمْ بقَبُولِي ولَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لَمْ يَلِنْ ، وسَمِعْتُ الذي يَتَعَجَّبُ أنَّ ثَرِيًّا يُحِبُّ القِراءَهْ .

عَرَفْتُ زَمِيلاً يُعَامِلُ أمْثَالَهُمْ باحْتِقَارٍ ، ويَبْدو عَلَىٰ وَجْهِهِ صَلَفٌ . قالَ لِي : " إنَّنا غُرَبَاءُ عَلَيْهِمْ لِذَا لَمْ أحاوِلْ صَداقَتَهُمْ . أنْتَ مِثْلِي أنِيقٌ ، وتَمْلِكُ سَيَّارَةً ، ولَدَيْكَ نُقُودٌ كَثِيرَهْ .

إذا مَا تَقَرَّبَ مِنْكَ غَبِيٌّ يُرِيدُ اقْتِراضًا فإنَّ عَلَيْكَ التَّغابِي .

نَعَمْ إنَّهُمْ لا يُطِيقُونَنا ... قَدْ تَعَدَّدَتِ الفَتَيَاتُ اللَّواتِي نَظَرْنَ لَهُمْ بازْدِرَاءٍ لِيَجْعَلْنَ أمْثَالَنَا مَطْمَعًا . إنَّهُمْ حاقِدونَ ، ونَحْنُ لُصوصٌ بأعْيُنِهِمْ نَسْتَحِقُّ الإبَادَهْ ."

وها هُوَ يَتْرُكُنِي واثِقًا أنَّهُ قَدْ هَدانِي لِمَا كُنْتُ أجْهَلُهُ فمَضَيْتُ أسِيرُ وحِيدًا بِلا غايَةٍ ، والغُروبُ يُخَبِّئُنِي ، وبُكائِي يَزيدُ اغْتِرابِي .

- 8 -

رآني أبِـي مُـسْرِفًا فِـي شُـرُودِ الـتَّـلَـفُّـتِ نَـحْـوَ الـنِّـسـاءْ .

فـسـافَـرَ بِـي نَـحْـوَ مَـنْـزِلِـنـا الـمُـتَـنَـاغِـمِ بـالـبَـحْـرِ . كـانَ الـشِّـتـاءُ يَـجـيءُ بـبَـعْـضِ الـمَـعـانِـي ، ولاحَ لـيَ الـمَـوْجُ يـأتِـي ولا يَـسْـتَـطـيـعُ الـوصُـولَ لـمَـنْـزِلِـنـا فـيَـعُـودَ إلى حَـيْـثُ جـاءْ .

وبَعْدَ مُرورِ السُّوَيْعاتِ جاءَتْ فَتاةٌ لَعَلِّيَ أعْرِفُها . دَخَلَتْ دونَما خَجَلٍ ثُمَّ أغْلَقَتِ البَابَ تارِكَةً خَلْفَهُ لَحَظَاتِ دُخولِ الظَّلامِ ، وبَرْدِ المَغيبْ .

أعَدَّتْ شَرابًا يُدَفِّئُها . إنَّها تَتَحَرَّكُ عارِفَةً بالتَّفاصيلِ . هَلْ زارَتِ البَيْتَ مِنْ قَبْلُ ؟ ها هِيَ تَنْظُرُ نَحْوي وتُدْرِكُ في لَحْظَةٍ ما بِجِسْمِيَ مِنْ رَعَشَاتْ .

أراها تُثَرْثِرُ في مَرَحٍ فَبَدَوْتُ
كأنِّيَ ضَيْفٌ غَريبْ .

مُمَثِّلَةٌ في بِداياتِها قَدْ أطاعَتْ
أبي فأتَتْ لتُخَلِّصَنِي مِنْ ذُهولٍ
يَجيءُ لنَفْسيَ كلَّ مَساءْ .

بِلا حَرَجٍ أمْسَكَتْني ، وراحَتْ لغُرْفَةِ
نَومِي ، وكُنْتُ كعَبْدٍ يُساقُ إلىٰ
ما تَشاءْ .

تَخَلَّصْتُ مِنْ خَجَلِي ، وأَطَعْتُ انْجِذابِي إلَيْها فراحَتْ تُحَوِّمُ حَوْلِي ، وقَبْلَ انْدِماجِي بأنْفاسِها وَهَبَتْنِي قَليلاً مِنَ اللَّمَساتْ .

سَمِعْتُ أبي يَتْرُكُ البَيْتَ . سَوْفَ يَبيتُ بَعيداً ، ويَتْرُكُني في حِمَاها ... وفي ساعَتَينِ تَحَوَّلَ جِسْمِي إلى سَيِّدِ العُقَلاءْ .

لَـقَـدْ وَجَـدَتْـنِـي هُـمَـامًـا حَـنُـونًـا فَـصِـرْتُ أُحِـسُّ بِـهـا فـي حِـمَـايَ ، وكانَـتْ تَـقـولُ : " أُحِـبُّـكَ " في لَـحَـظـاتِ الصُّراخِ ، وكـانَـتْ تُحِبُّ الـبَـذاءَةَ قَـبْـلَ الـوصـولِ إلى هَـذِهِ الـلَّـحَـظـاتْ .

أخَـذْتُ أُلامِـسُـهـا فـي امْـتِـنـانٍ ، وأَكْـتُـمُ صَـوْتَ انْـتِـشـائِـي ... وساءَلْـتُ نَـفْـسـيَ كَـيْـفَ تَـنـامُ الـطُّـيـورُ الـتـي فـي حَـديـقَـةِ مَـنْـزِلِـنـا والرِّيَـاحُ التي حَـوْلَـهـا مَـطَـرٌ وضَـبـابْ ؟

وجاءَ إلىٰ خاطِرِي أنَّ ثَمَّةَ فِئْرانَ تَحْيَا سُعارًا مِنَ الجِنْسِ وقْتَ التَّزاوُجِ . لا شَيءَ تَفْعَلُهُ غَيْرُ ذاكَ اللُّهَاثِ مِنَ النَّشَواتِ التي تَتَواصَلُ دُونَ انْقِطاعٍ إلىٰ أنْ تَموتَ الذُّكورُ جَميعًا . مَآسٍ بِها فَرْحَةٌ . يا لَهُ مِنْ فَناءْ .

وعادَ أبي في الصَّباحِ . رَأىٰ وجْهَهَا في ذُبولِ التي عاشَرَتْ عُصْبَةٌ مِنْ جُنودْ .

إذا ما مَشَتْ شَعَرَتْ ألَمًا حارِقًا .
إنِّها تَشْرَبُ الشَّايَ في كَسَلٍ
وتَقولُ : " لَعَلِّيَ أحْتاجُ شَهْرًا
مِنَ الزُّهْدِ حَتى أعودْ . "

وها هوَ يَنْظُرُ لِي حاسِدًا ، ثُمَّ
صارَ يُباهِي بجُرْأتِهِ وفُحُوْلَتِهِ في
سِنينِ الشَّبابْ .

فجارَيْتُهُ وكَتَمْتُ ارْتِباكِي . أُبُوَّتُهُ كُنْتُ أَشْعُرُها تَتَدَفَّقُ صادِقَةً ، وطَوالَ الطَّرِيقِ إلىٰ القَصْرِ كانَ يُثَرْثِرُ حَتَّىٰ تَمَادَىٰ فَقالَ : " لَدَيَّ مِنَ العِلْمِ ما لَنْ تَراهُ خِلالَ كِتَابْ . "

ظَنَنْتُ الذي قَدْ جَرَىٰ مَحْضَ سِرٍّ إلىٰ أنْ عَلِمْتُ بأنَّ أَبِي قَدْ حَكَىٰ ساخِرًا كُلَّ ما تَمَّ للأَصْدِقاءْ !

- 9 -

خَرَجْتُ مِنَ القَصْرِ مُسْتَنْجِدًا بالصَّبَاحِ فأسْلَمْتُ جِسْمِي لَهُ طائعًا ، وظَلِلْتُ أسِيرُ وأعْدُو بلا كَلَلٍ أتَنَفَّسُ رائِحَةَ العُشْبِ حَوْلَ السِّيَاجْ .

شُهورٌ مَضَتْ وأنا أتَذَكَّرُها ، وحَيائِي يُبَاعِدُنِي عَنْ أبِي . كَيْفَ أطْلُبُ مِنْهُ الذَّهابَ هُناكَ لِتَكْرارِ تِلْكَ العَلاقَهْ ؟!

أسِيرُ وأعْدُو .. ذُهُولِي يُساعِدُنِي ، واشْتِياقِي يُغَادِرُ جِسْمِي ويَرْجِعُ نَحْوي هَواءً يُطَارِدُنِي . أينَ راحَتْ ؟ لَسَوْفَ أراها خِلالَ الشُّجَيْراتِ ... لا .. إنَّها الآنَ تَتْبَعُنِي مِنْ بَعيدْ .

عَلَى البُعْدِ ثَمَّةَ سُورٌ . هَلِ اخْتَبَأَتْ خَلْفَهُ ؟ أمْ هِيَ الآنَ نائِمَةٌ عِنْدَ ظِلٍّ ، وسَوْفَ تَجيءُ إلى القَصْرِ بَعْدَ انْطِفاءِ الظَّهيرَهْ ؟

تَوَغَّلْتُ في الوَقْتِ . ها تَعَبِي يُسْرِعُ العَدْوَ حَتَّى أعودَ إلى غُرْفَتِي فأراها هُناكْ .

لَسَوْفَ تُفَاجِئُنِي وهْيَ ضاحِكَةٌ فأقولُ لَها : " أنتِ مأسورَةٌ ها هنا . لَنْ أُفَرِّطَ فيكِ ... " تَخَيَّلْتُ قَيْسًا تَوَغَّلَ في حِضْنِ لَيْلَى فصارَ بِلا غُرْبَةٍ ... كُلَّما لامَسَتْهُ تلاشَتْ حَماقاتُ أشعارِهِ ، وتَراءَى لَهُ أنَّ حِرْمانَهُ كانَ إثْمًا ، وأنَّ العَفافَ خَطِيئَهْ .

وها هِيَ فِي لَحْظَةٍ تُغْلِقُ البابَ ماكِرَةً فأقولُ : " أراكِ تُريدينَ تَكْرارَ لَيْلَتِنا فاسْمَعِينِي .. إذا ما احْتَضَنْتُكِ لا تَصْرُخي فهُناكَ الكَثيرُ مِنَ الخَادِماتْ . "

شَعَرْتُ بأمِّي تَمُرُّ بِبابِي . لَقَدْ سَمِعَتْنِي أُكَلِّمُ نَفْسِي ، وصَوْتِيَ مُسْتَرْسِلٌ في النَّحيبْ .

فَمَا حاوَلَتْ أنْ تُكَلِّمَنِي . هِيَ تَعْرِفُ أنِّيَ أَكْتُمُ أسْرارَ قَلْبِي . كأنِّي مِنَ الصَّخْرِ ... أبْقَى خِلالَ الفُصولِ عَصِيًّا ، وأنْتَظِرُ الماءَ حتَّى يُبَلِّلَنِي . كَيْفَ أَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الصَّحَراءِ المُخيفَهْ ؟!

تَشَجَّعْتُ عِنْدَ المَسَاءِ .. " أبي سَوْفَ يُنْقِذُنِي " فاخْتَلَيْتُ بِهِ .. "إنَّني أتَعَذَّبُ . كيفَ أراها ؟ " فقالَ : " هِيَ الآنَ قَدْ صَعِدَتْ للنُّجومْ .

أتَجْهَلُ أخْبارَها يا جَهولْ ؟

أمازِلْتَ مُبْتَعِداً في المَتَاهاتِ تَبْحَثُ عَنْ كُتُبٍ لا تُفيدْ ؟

لَقَدْ بَدَأَتْ شُهْرَةً تتَزايَدُ في كلِّ يَوْمٍ ... هُناكَ رِجالٌ لَدَيْهِمْ مِنَ المَالِ أكثَرُ مِمَّا لَدَيْنَا يُريدونَ مِنْها الزَّواجْ .

لَدَيْكَ الكَثيراتُ يَفْعَلْنَ كُلَّ الذي فَعَلَتْهُ فلا تَتَعَنَّتْ ... أراكَ تَرَكْتَ الحَيَاةَ جَميعًا لأجْلِ فَتاةٍ غَريبَهْ . "

رَأيْتُ بعَيْنَيْهِ إشْفاقَهُ ومَحَبَّتَهُ ، واسْتَمَرَّ يُكَلِّمُنِي وأنا صامِتٌ أسْمَعُ اللَّوْمَ مُخْتَلِطًا بالسِّبَابْ .

وجاءَ الصَّباحُ فَقَدَّمْتُ جِسْمِيَ للشَّمْسِ أعْدو خِلالَ مَباهِجِها كالذَّلِيلْ .

أخَذْتُ أُسَابِقُ وهْمًا ، وصِرْتُ أُقَلِّلُ مِنْ شأنِ مَنْ هَجَرَتْنِي . أُكَرِّرُ لَوْمِي لَهَا ، والثَّواني قَدِ انْدَمَجَتْ بمُروجٍ ظَلِيلَهْ .

لَقَدْ هَمَسَتْ وهْيَ هادِئَةٌ تَتَحَسَّسُني " لَكأنِّي أُحِبُّكَ " ثُمَّ اسْتَكانَتْ إلى كَسَلٍ ثُمَّ بَعْدَ دَقائِقِ صَمْتٍ – مَكَثْنا بِها داخِلَ الدِّفءِ – قالَتْ : " أتَحْسَبُ أنِّي أنامْ ؟ "

وفي لَحْظَةٍ أرْبَكَتْنِي . لَقَدْ مَسَّها اللَّيلُ بالسِّحْرِ فانْسَحَبَتْ مِنْ عِناقِي ، وراحَتْ لضَوءٍ بَعيدٍ قَريبٍ ، وظَلَّتْ هنالِكَ تَرْقُصُ عارِيَةً ، وتُرينِي مَفاتِنَها مُتَجاهِلَةً أنَّها في الشِّتاءْ .

مَكَثْتُ وحَوْلي بَصِيصُ ضِياءٍ وكانَتْ تَرانِي ، ولا .. لا تَرانِي ، وتَشْعُرُ ما جاءنِي مِنْ ذُهولْ .

فكَيْفَ إذَنْ لَمْ تُحاوِلْ مُكالَمَتِي ؟ آهِ كَيْفَ اخْتَفَتْ عَنْ وجودِي ؟ وهَلْ رَضِيَتْ أنْ تَصيرَ لغَيرِي سِنينًا ، وتَتْرُكَنِي ليْسَ عِنْدِيَ مِنْها سِوَىٰ لَيْلَةٍ أَسَرَتْنِي ، ولَنْ أتَحَرَّرَ مِنْها بغَيْرِ لَيَالٍ كَثِيرَهْ ؟!

وعِنْدَ المَساءِ رآنِي أبِي تائِهًا في الشَّتَاتْ .

تَبَسَّمَ مُسْتَهْزِئًا سائِلاً : " هَلْ أُصِبْتَ بِداءِ الحَمَاقَهْ ؟ "

وأخْبَرَنِي بالطَّرِيقِ الذي قَدْ هَدانِي إلىٰ عَشَراتٍ مِنَ الفَتَياتْ .

فأكْثَرْتُ مِنْهُنَّ . مَنْزِلُنا السَّاحِلِيُّ احْتَوَىٰ سَهَراتِي ، وبَعْدَ انْتِهائِي أصِيرُ كَسِيرًا ، وأدْخُلُ في نَدَمٍ ... قَدْ تَلَوَّثْتُ بالسَّاقِطاتْ .

أُحاوِلُ نِسْيانَها دُونَ جَدوَىٰ كأنِّيَ
أحْبَبْتُ قِدِّيسَةً طَهَّرَتْ جَسَدِي ،
وأَرَتْنِي الحَقِيقَهْ .

ومَرَّتْ شُهورٌ فصِرْتُ عَلَىٰ ثِقَةٍ
أنَّها إنْ رأتْنِي فَلَنْ تَتَذَكَّرَنِي .
إنَّنِي مِنْ أُناسٍ تَمُرُّ بِهِم
لَيْلَةٌ فيُصابونَ دَهْرًا بِداءِ
الحَمَاقَهْ .

تَحَوَّلَ إقْبالُها في خَيالِيَ حُمَّى
فصِرْتُ أُراوِغُها باللُّجوءِ لذاكَ
الجَحيمِ مِنَ السَّهَراتْ .

وها هِيَ أمِّيَ تَسْأَلُ في قَلَقٍ
واضْطِرابٍ : " لماذا الذَّهابُ هناكْ ؟! "

نَظَرْتُ إليها بوَجْهٍ يَلوحُ بِهِ الصِّدْقُ
ثُمَّ بَدَوْتُ رَزينًا ، وقُلْتُ لها كِذْبَةً
اَلَمَتْنِي : " أكونُ هناكَ وحيداً معَ
البَحْرِ مُخْتَلِيًا بالسَّماواتِ ... حِينَئِذٍ
أستَطيعُ العِبادَهْ . "

- 10 -

فَتاةٌ بِها حَيْرَةٌ وذَكاءٌ رَأَتْ ما أعيشُ بِهِ مِنْ ثَراءٍ فَلَمْ تَتَمَلَّقْ، ولَمْ تَتَبَذَّلْ. أَحَسَّتْ بأنِّي اكْتَفَيْتُ فَلاحَ حَيَاءٌ بِها فارْتَدَتْ كُلَّ مَلْبَسِها ثُمَّ راحَتْ لتَنْظُرَ عَبْرَ الزُّجَاجْ.

وقَفْتُ بجانِبِها فرَأَيْتُ اسْوِدادَ المِيَاهِ غُموضًا، وأصْواتَ مَوْجٍ. هِيَ الآنَ تَنْتَظِرُ الصُّبْحَ حتَّى إذا جاءَ تَمْضِي.

أطَـالَـتْ تَـأمُّـلَـها في الـظَّلامِ ، وها هِـيَ تَـبْـكِي .

ولـمَّـا رَأتْـنِـيَ مُـسْـتَـغْـرِبًا مَـسَـحَـتْ دَمْـعَـةً ثُـمَّ قـالَـتْ : " هـنـاكَ أَخِـي وخَـطِـيـبِـي بتِـلْـكَ الـمِـيَـاهِ غَـريـقانِ . لا قَـبْـرَ نَـعْـرِفُـهُ لَـهُـمَـا . قَـدْ أرادا الـرَّحـيـلَ هُـروبًا مِـنَ الـقَـهْـرِ . لَـمْ يَـخْـشَـيَـا أنَّ ثَـمَّـةَ مَـنْ مـاتَ قَـبْـلَـهُـمَـا في الرَّحـيـلْ .

سَـمـاسِـرَةُ الـبَـحْـرِ لا يَـأبَـهـونَ بـأرواحِ مَـنْ يَـرْحَـلـونْ .

وبَعْدَ شُهُورٍ ظَلِلْتُ بِها في ظُنونٍ تَيَقَّنْتُ أنَّهُما دَخَلا كالمَسَاجِينِ في مَرْكَبٍ غَرِقَتْ وبِها عَشَراتُ الشَّبابْ .

كأنِّي أرَىٰ الآنَ في المَاءِ بَعْضَ الطُّيوفِ تَروحُ وتَأتِي . "

نَظَرْتُ إليْها حَزينًا ولَكِنَّها انْدَفَعَتْ ثُمَّ راحَتْ إلىٰ البابِ تَفْتَحُهُ ، واخْتَفَتْ وهْيَ تَبْكِي خِلالَ الظَّلامْ .

- 11 -

هَـرَبْـتُ لـبَـعْـضِ الـذي داخِـلَ الـنَّـفْـسِ
مِـنْ ذِكْـرَيـاتْ .....

هـوَ الـصَّـيْـفُ يَـبْـدو مَـسافـاتِ شَـوْقٍ
وأنْـتَ بِـرُومَـا تَـحـارُ خِـلالَ شَـوارِعِـهـا ،
وتَـزورُ مَـتـاحِـفَـهـا ، وتَـزُجُّ بِـجِـسْـمِـكَ
داخِـلَ مَـقْـهًـى تَـشُـمُّ فَـتـاةً تَـصُـبُّ لَـكَ
الـمـاءَ قَـبْـلَ وصـولِ الـطَّـعـامْ .

أحَـبَّـتْـكَ شَـهْـرًا فـتُـهْـتَ خِـلالَ
حُـقـولٍ إذا مَـسَّـهـا الـلَّـيْـلُ بـاحَـتْ
بـأخْـيِـلَـةٍ فـتَـقَـارَبْـتُـمـا ... والـعِـنَـاقُ
لَـهُ صِـلَـةٌ بـالـسَّـحـابِ وبـالـنَّـغَـمـاتْ .

وها دَفَقَاتُ البَنَفْسَجِ تَنْسَلُّ عَبْرَ رُؤاكْ .

ولكِنَّهُ العِشْقُ يَمْضِي حَثِيثًا إلى لَحَظاتِ الوداعِ ويَذْهَبُ نَحْوَ الغُروبْ .

بِلادٌ قَدِ انْدَمَجَتْ بالحَياةِ ، ولَيْسَ بآخِرَةٍ وشَياطينَ تَعْبَثُ بالنَّاسِ ... إنَّ العِباراتِ واضِحَةٌ ، والمَشاعِرَ لَيْسَ بِها مِنْ غُيومْ .

لماذا إذَنْ لا تَظَلُّ هُناكْ ؟!

- 12 -

مُصَادَفَةٌ أخَذَتْنِي إلىٰ سَهْرَةٍ جاءها الشُّؤْمُ مُلْتَصِقًا بأبِي كالغُبَارِ الذي لا يُرَىٰ . كانَ بَيْنَ السُّكارَىٰ مَلاحِدَةٌ بَدَءوا في التَّهَكُّمِ ، واللَّمْزِ في قَصَصِ الأنْبياءْ .

وخاضوا خِلالَ تَفاصيلِها ، وأعاجيبِها بكَثيرٍ مِنَ القَهْقَهاتْ .

تراءَىٰ أبِي ضاحِكًا غافِلاً لا يُحِسُّ بأخْطارِ تِلْكَ الحِواراتِ في بَلَدٍ عائِشٍ في العَقيدَهْ .

لَقَدْ كانَ يُؤْمِنُ أنَّ هُناكَ إلَهًا
فَهَلْ كانَ يَضْحَكُ حَتَّى يُجَارِي أُنَاسًا
رَأى أنَّها تَنْتَمِي للثَّقَافَهْ ؟!

أمَا كانَ يُدْرِكُ أنَّ هُناكَ حُدودًا ، ومِنْ
بَعْدِها المُهْلِكاتْ ؟

تَفَشَّى ارْتِباكٌ فكُلُّ الحُضورِ
– عَدا السَّاخِرينَ – مِنَ المُؤْمِنينْ .

لَقَدْ سَمِعوا مَنْ يُحَقِّرُ إيمانَهم
فاسْتَحَبُّوا الخُروجَ مِنَ السُّكْرِ نَحْوَ
الإفَاقَهْ .

ولاحَتْ مَعارِكُ ظَلَّ الكَلامُ سِلاحًا
وحيدًا بِها ثُمَّ عادوا قُعودًا
وهُمْ يَلْهَثونَ فأجْسامُهُمْ تَكْتَسِي
بشُحُومٍ، ويُثْقِلُها ما بِها مِنْ
عَشَاءْ.

بهَذا اكْتَفَوا بالشَّتائِمِ واللَّعَناتْ.

وجاءَ صَباحٌ رأينا بِهِ صُحُفًا تَتَحَدَّثُ
عَنْ مُنْتِجٍ مُلْحِدٍ، ولَهُ زَوْجَةٌ نَجَحَتْ
في التَّعَرِّي ولكنها فَشِلَتْ كمُمَثِّلَةٍ
فتَوارَتْ وصارَتْ ككُلِّ اللواتِي فَشِلْنَ
يَلُحْنَ كذِكْرَىٰ أليمَهْ.

لماذا تَراءَى ابْنُهُ وهْوَ شابٌّ بصُحْبَتِهِ ؟! هَلْ أرادَ لَهُ أنْ يُحِبَّ المَبَاذِلَ في هَذِهِ السَّهَراتْ ؟!

سَيَغْدو وريثًا لِمَنْ لَمْ يُقَدِّمْ إلى النَّاسِ إلا كَثيرًا مِنَ اللَّغْوِ مُمْتَزِجًا بطَرائِفَ ساذَجَةٍ . إنَّهُ لا يُحِسُّ بمِصْرَ التي زادَ فيها الشَّقَاءُ ، وضاعَ بها الأذْكِياءْ .

ومَرَّتْ لَيالٍ مَكَثْنا بها داخِلَ القَصْرِ
مُنْعَزِلينَ كأنَّا احْتَمَيْنا بجُدْرانِهِ .
ها غُموضٌ يَبِيتُ بأجْوائِهِ ... لَمْ
يَعُدْ بيْنَنا غَيْرُ صَمْتٍ بِهِ كَلِماتٌ
قَليلَهْ .

وجاءَ صَباحٌ رأيْنا بِهِ صُحُفًا
قَدْ تَشَجَّعَ فيها قَليلٌ مِنَ
الشُّرَفاءْ .

لَقَدْ ذَكَروا سَرِقاتِ الأراضِي ، ودَفْعَ
ألوفٍ مِنَ النَّاسِ في كلِّ يَوْمٍ
لتَنْضَمَّ للتُّعَسَاءْ .

وثَـمَّـــةَ مَـنْ يَـتَـسـاءَلُ كَـيْـفَ تَـغَـيَّـرَ حـالُ الـلِّـواءِ الـمُـحـارِبِ فانْـضَـمَّ لـلأثْـريـاءْ ؟

أرادوا امْـتِـلاكَ الـبِـلادِ فـقـامـوا بإضْـعافِـهـا ... إنَّ مِـصْـرَ غَـنـيـمَـهْ .

تَـوَغَّـلْـتُ في الـكَـلِـمَـاتِ فَـبَـاتَ ضَـمـيـريَ أطْـيـافَ نـارٍ تُـعَـذِّبُـنِـيْ ثُـمَّ تَـخْـبـو ، ولـكـنـهـا لا تَـزولْ .

لَـقَـدْ حَـمَّـلَـتْـنِـي جَـرائِـمَ لَـمْ أرْتَـكِـبْـهـا . أنـا مُـذْنِـبٌ ... صَـفْـحَـتِـي مـا بِـهـا مِـنْ ذُنـوبْ .

- 13 -

حَـزِنْـتُ عَـلَـى الـشُّـرَفـاءِ . ضَـمـائِـرُهُـمْ أرْسَـلَـتْـهُـمْ إلـى عَـتَـبَـاتِ الـعُـتَـاةِ ، ولـيـسَ لَـهُـمْ مِـنْ رُجُـوعٍ . هُـمُ الـضُّـعَـفـاءْ .

فَـلَـمْ يَـنْـدَمُـوا أنَّ أيَّـامَـهُـمْ كَـمَـدٌ ، ومَـخَـاطِـرُ شَـتَّـى ، وأنْـوارُ لَـيْـلٍ قَـلـيـلَـهْ .

لَـهُـمْ زُمَـلاءُ أكـاذيـبُـهُـمْ تَـتَـجَـدَّدُ فـي كُـلِّ يَـوْمٍ . لَـقَـدْ جَـعَـلُـوا كُـلَّ مَـنْ ظُـلِـمـوا مِـنْ وجـودِ الـفَـسـادِ رُعَـاعًـا ، ومَـنْ يَـنْـهَـبُـونَ الـبِـلادَ حُـمَـاةَ الـفَـضـيـلَـهْ .

حِوارٌ ، وصُورَةُ جَدِّيَ وهْوَ حَزينٌ يَرُدُّ عَلَى كُلِّ مَنْ قَدْ تَجَنَّوْا عَلَيْهِ . لَقَدْ حَرَّرَ الأرضَ ، والآنَ صارَ يُعَمِّرُها . إنَّ أيامَهُ قَدَرٌ ورِسالَهْ .

وأمَّا مِئاتُ القَضايا التي حاصَرَتْهُ فَقَدْ بَرَّأَتْهُ العَدالَةُ مِنْها جَميعًا . لَقَدْ أخْرَسَ اللهُ ألْسِنَةَ الحاقِدينَ ، وأرْسَلَ رُوحَ النَّزاهَةِ كامِلَةً في قُلُوبِ رِجالِ القَضاءْ .

حِـوارٌ ، وفـي قَـلْـبِـهِ صُـورَةٌ لأبِـي
واقِـفـًا فـي خُـشُـوعٍ يُـصَـلِّـي ، وبَـيْـنَ
العَـنَـاويـنِ أَلْـقَـى إلـى الـنـاسِ بُـشْـرَى ...
فـبَـعْـدَ أسـابِـيـعَ سَـوفَ يَـحُـجُّ ، وبَـعْـدَ
الـرُّجُـوعِ سَـيُـنْـتِـجُ سِـلْـسِـلَـةً عَـنْ حَـيـاةِ
الـصَّـحـابَـهْ .

حَـزِنْـتُ عَـلَـى الـشُّـرَفـاءْ ...

- 14 -

ريَاحُ اللَّيالِي كخَيْلِ امْرِئِ القَيْسِ كَرٌّ وفَرٌّ . لَقَدْ ماتَ قَبْلَ اكْتِمالِ الغِنَاءْ .

وكانَ جَديراً بألا يَموتَ إذا ما تَخَاذَلَ عَنْ حَرْبِهِ ، تاركًا ثَأْرَهُ ، هائِمًا يَتَرَحَّلُ بَيْنَ اليَنابيعِ في الصَّحَراءْ .

وأَسْمَعُ لَوْمًا : " لماذا اخْتَفَيْتَ فَما عُدْتَ مُكْتَرِثًا بمآسِي البُيوتِ البَعيدَهْ ؟! "

فـقُـلْـتُ : " رأيْـتُ جِـبـالاً مِـنَ الـمـالِ حَـوْلِـي فـصِـرْتُ ضَـئـيـلاً . مَـكَـثْـتُ بـجـانـبِـهـا كـالـسَّـجـيـنِ فَـمَـنَّـتْ عَـلَـيَّ فَـمَـا احْـتَـجْـتُ شَـيـئًـا فـمـاتَ طُـمـوحِـي ... إذا مـا تَـمَـرَّدْتُ أرْجِـعُ نَـحْـوَ الـدُّروبِ الـفَـقـيـرَهْ .

رأيْـتُ ظِـلالاً ونـاسًـا فـراقَـبْـتُ مـا مَـرَّ بِـي مِـنْ وجُـوهٍ لَـعَـلِّـي أُحِـسُّ بـوَجْـهٍ يَـصـيـرُ صَـديـقـًا . ظَـلِـلْـتُ كـذلِـكَ حَـتَّـى رأيْـتُ غُـروبـًا ، وآخِـرُ ضَـوْءٍ مِـنَ الـشَّـمْـسِ أوْحَـى لِـقَـلْـبِـيَ أنْ أتَـوارَى وحيدًا ... هُـمُ الأثْـرياءُ بلا أصْدِقاءْ . "

صَحَوْتُ مِنَ النَّوْمِ مُخْتَنِقًا كاتِمًا صَرَخاتِي ... أنا لَنْ أنامْ .

خَرَجْتُ مِنَ القَصْرِ ، واللَّيْلُ مُنْدَفِعٌ في مَتاهاتِهِ . إنَّنِي أتَبَدَّدُ أسْئِلَةً ... قُلْتُ سَوْفَ أسِيرُ كَثِيرًا لأَبْلُغَ تِلْكَ السَّحابَهْ .

تَذَكَّرْتُ أنِّي قَرَأتُ كِتابًا يُشِيرُ إلىٰ سَأمٍ يَسْتَبِدُّ ببَعْضِ المُلوكْ .

تَراءَىٰ لَهُمْ أنَّ كُلَّ المَلَذَّاتِ تَحْدُثُ في لَيْلَةٍ تَتَكَرَّرُ حَتَّىٰ تُسَلِّمَهُمْ لِلهَلاكْ .

أخَـذْتُ أسِـيـرُ إلـىٰ أنْ تَـلاشَـتْ أمـامِـي السَّحـابَـهْ .

فـعُـدْتُ كـأنِّـي هُـزِمْـتُ . أرَىٰ الـقَـصْـرَ في الـبُـعْـدِ مُـسْتَـسْـلِـمًا لـحَـدائِـقِـهِ ، والـمَـصـابـيـحَ قَـدْ أظْـهَـرَتْـهُ فَـلاحَ جَـمـيـلاً مَـهـيـبًـا ... فَـمَـنْ ذا يُـصَـدِّقُ أنَّ كَـثـيـرًا مِـنَ الـلَّـعَـنـاتِ تَـخَـفَّـتْ هُـنـاكْ ؟!

وهـا هِـيَ أمِّـي تَـلُـوذُ بـغُـرْفَـتِـهـا بَـعْـدَ أنْ نُـشِـرَتْ صَـفْـحَـةٌ طُـوِيَـتْ مِـنْ سِـنِـيـنَ ، ولاحَ بـنَـظْـرَتِـهـا أنَّـهـا تَـتَـبـاعَـدُ عـمَّـا بـهـا مِـنْ سَـكِـيـنَـهْ .

تَـقَـرَّبْتُ مِـنْـهـا كَـثـيـرًا كـأنَّ ابْـنَـتِـي مَـرِضَـتْ . إنَّ أعْـمـاقَـهـا تَـسْـتَـغـيـثُ بـغَـيْـبٍ تُـحِـسُّ بِـهِ حَـوْلَـهـا ، وأنـا لا أَراهْ .

وأنْـظُـرُ في وجْـهِـهـا لائِـمًـا ... إنَّـهـا تَـتَـمَـنَّـى المَـمَـاتْ .

كـأنِّـيَ قُـلْـتُ لـهـا أنْـتِ أمِّـي فـإيَّـاكِ أنْ تَـتْـرُكـيـنِـي ... بـغَـيْـرِ وجـودِكِ تَـبْـطُـلُ هَـذِي الـحَـيـاهْ .

وسـاءَلْـتُ نَـفْـسِـي مَـتَـى سـيَـزولُ عَـنِ الـقَـصْـرِ صَـمْـتٌ تَـراكَـمَ فـيـهِ ، وصـارَ يُـشَـابِـهُ صَـوْتَ الـبُـكـاءْ ؟!

- 15 -

تَـلاشَـى مَـعَ الـلَّـيْـلِ جَـدِّي ، ولَـمَّـا أتَـاهُ الـصَّـبـاحُ رأيْـنَـاهُ مُـكْـتَـئِـبًـا مَـيِّـتًـا لا يُـحِـسُّ بِـمَـا حَـوْلَـهُ مِـنْ بُـكَـاءٍ ، ومِـنْ فَـزَعِ الـخـادِمـاتْ .

وبَـعْـدَ أسـابـيـعَ مِـنْ مَـوتِـهِ قَـدْ تَـراءَتْ صِـرَاعـاتُ أبْـنـائِـهِ تَـتَـعَـفَّـفُ مِـنْـهـا الـذِّئـابْ .

أبِـي قَـدْ تَـقَـمَّـصَ رُوحَ الـشَّـيـاطِـيـنِ .
كـانَ يَـرَى أنَّ إخْـوَتَـهُ ومَـطـامِـعَـهُـمْ
كـالـثَّـعـابِـيـنِ إذْ تَـتَـشَـابَـكُ ... لابُـدَّ أنْ
تَـتَـبـاعَـدَ عَـنْـهُ وإلا فَـسَـوْفَ تَـمُـوتْ .

تَـرَاءَى لَـهُـمْ حَـنِـقًـا ومُـخـيـفًـا ، وصـارَ
يُـهَـدِّدُهُـمْ فَـتَـبَـدَّى أخَـًا مُـجْـرِمًـا سَـوفَ
يَـسْـتَـأجِـرُ الـمُـجْـرِمـيـنَ لـيَـقْـضُـوا عَـلَـيْـهِـمْ
إذا لَـمْ يَـصـيـروا لَـهُ طـائِـعـيـنْ .

قَـدِ ارْتَـعَـبـوا هُـمْ وأبْـنـاؤهُـمْ فـتَـمَـادَى ،
ونـالَ الـذي كـانَ يَـطْـمَـعُ فـيـهِ فَـلَـمْ
يَـبْـقَ إلا القَـلـيـلْ .

وكانَ القَليلُ كَفيلاً بإسْعادِهِمْ
عَشَراتِ السِّنينْ .

ضَغَائِنُهُمْ فَرَّقَتْهُمْ ، ولَيْسَ
يُجَمِّعُهُمْ غَيْرُ حِقْدٍ عَلَى ذلِكَ
المُسْتَبِدِّ البَغيضْ .

أراهُ فَخوراً يَقولُ : " لَسَوْفَ أُحَوِّلُ
نَفْسيَ مِنْ مُنْتِجٍ هازِلٍ عَدَمِيٍّ
إلى مُنْتِجٍ قَدْ أرادَ الخُلودْ .

وكلُّ السِّنينَ التي عِشْتُها ها أنا
أَتَبَرَّأُ مِنْهَا ، وأُلْقِي بِها في
الظَّلامْ .

سأجْعَلُ ما قَدْ تَبَقَّىٰ مِنَ العُمْرِ
سِحْرًا مِنَ الفَنِّ يُفْضِي لسِحْرٍ ،
وما سَوْفَ يُطْلَبُ مِنِّي سيَأتِي بِهِ
المالُ وهْوَ كَثيرْ .

نُجومٌ ، شَوارِعُ مَمْلُوءَةٌ بزِحامٍ ،
ملابِسُ مِنْ كُلِّ عَصْرٍ ، قَوافِلُ راحِلَةٌ
في صَحَارَىٰ ، خُيولٌ ، قِتَالٌ ، دُروبٌ
بِها اللَّيْلُ مُنْتَشِرٌ والمَصابيحُ
خافِتَةٌ ..... سأرَىٰ العَدَسَاتِ مُصَوَّبَةً
نَحْوَ ما يَنْبَغِي أنْ يَكونْ .

وأجْهِزَةُ الصَّوْتِ يُمْكِنُها أنْ تَبوحَ بكُلِّ التَّفاصيلِ : مِنْ صَخَبِ الحَرْبِ حَتَّى مُرورِ الهَواءِ خِلالَ السُّكونْ .

سيَذْكُرُنِي النَّاسُ مُقْتَرِنًا بالأعاجِيبِ والعُظَماءْ .

وقَدْ يَتَغَيَّرُ قَلْبِي فأغْدو عَفيفَ اللِّسانْ . "

رأيْتُ أبِي لَمْ يَعُدْ بأبِي لَكَأنَّ العَواصِفَ قَدْ دَفَعَتْهُ إلى ما يُريدْ .

وها هُوَ يَدْعو إلى القَصْرِ بَعْضَ المَشاهيرِ في صُحْبَةِ المُخْرِجِ العَبْقَرِيِّ الكَثيرِ الدَّهاءْ .

وبَعْدَ قَليلٍ مِنَ السُّكْرِ قالَ أبِي : " إنَّنِي كُنْتُ مُبْتَذِلاً حينَ أنْتَجْتُ مِنْ قَبْلُ تِلْكَ السَّفالاتِ لَكِنَّنِي الآنَ بَيْنَ يَدَيكَ أتوبْ . "

فقالَ لَهُ الضَّيْفُ في طِيبَةٍ وتَعَالٍ : " إذا ما عَمِلْنا مَعًا أنتَ لَنْ تَتَدَخَّلَ في أيِّ أمْرٍ . أنا مَنْ سيَخْتارُ مَنْ يَعْمَلونْ .

ستُنْفِقُ مالاً كَثيراً ، وأعْلَمُ أنَّكَ تَمْلِكُهُ غَيْرَ أنِّي عَنيدٌ ، وأنْحازُ للفَنِّ دونَ رِياءْ .

ويا لَيْتَنِي وأنا في شُئونِيَ مُنْشَغِلٌ لا أراكْ . "

تَراءَىٰ أبِي صامِتًا مُسْتَجيبًا ، وبَعْدَ انْتِهاءِ الزِّيارَةِ صارَ يُقاوِمُ ما جاءَهُ مِنْ وُجُومْ .

ولَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بيَئوسٍ فقالَ : " ببُطْءٍ سأصْعَدُ نَحْوَ النُّجومْ . "

- 16 -

وُجُـوهُ الـنَّـسـانِـيـسِ تَـبْـدو عَـلَـيْـهـا الـطَّـرافَـهْ .

ولمَّـا تَـجُـوعُ تُـغـادِرُ أشْـجَـارَهـا ثُـمَّ تَـمْـضِـي خِـلالَ الـغُـصُـونِ لـتَـصْـطـادَ بَـعْـضَ قُـرودٍ مُـجَـاوِرَةٍ ثُـمَّ تَـأكُـلَـهـا حَـيَّـةً . يا لَـهـا مِـنْ وَلـيـمَـهْ .

وهـا هِـيَ تَـرْجِـعُ ثـانِـيَـةً لـطَـرافَـتِـهـا وتَـقَـافُـزِهـا . إنَّـهـا - لَـسْـتُ أدْري لِـمـاذا - تُـذَكِّـرُنِـي بـجَـرائِـمِ جَـدِّي الـرَّهـيـبَـهْ .

وأمِّي التي رَحَلَتْ مُنْذُ عامَيْنِ فاكْتَمَلَتْ غُرْبَتِيْ قَدْ أَتَتْنِي مِنَ الصَّمتِ طَيْفًا ، ولامَتْ أُنَاسًا بلا سَبَبٍ بَدَّدوا صَفْوَها فاسْتَكَانَتْ لِوَهْمٍ أَلَمَّ بِها . تَرَكَتْنِي وراحَتْ إلى غَفْوَةٍ فسَمِعْتُ خِلالَ الشُّجَيْراتِ صَوْتَ بُكاءْ .

وبَعْدَ دَقائِقَ مِنْ مَوْتِها قَدْ شَعَرْتُ بِها تَتَحَوَّلُ حُلْمًا يُرِيدُ الذَّهابْ .

أبِـي قَـدْ أزالَ الـتَّـجَـاعِـيـدَ عَـنْ وجْـهِـهِ
بـالـجِـراحَـهْ .

تَـراءَى لِـعَـيْـنَـيَّ شابًّا عَـجـوزًا فَـذَكَّـرَنِـي
بالمُـسـوخِ الـتي تَـتَـمـازَجُ بالـنَّـاسِ في
قِـصَـصٍ أرْبَـكَـتْـنِـي خِـلالَ الـطُّـفـولَـهْ .

يَـعـودُ إلـى الـقَـصْـرِ في الـلَّـيْـلِ مُـصْـطَـحِـبًـا
فَـتَـيَـاتٍ فَـيَـزْدَحِـمُ الـبَـهْـوُ بـالـلَّـغْـوِ ،
والـسُّـكْـرِ ، والـضَّـحِـكَـاتْ .

لَـقَـدْ ظَـنَّ أنَّ الـكَـثـيـرَ مِـنَ الـمـالِ يـأتِـي لَـهُ بـالـنُّـبـوغِ ، وقَـدْ يَـتَـصَـاعَـدُ نَـحْـوَ الـبُـطـولَـهْ .

نَـعَـمْ كُـلُّ هَـذِي الـكَـوابـيـسِ تـأتِـي وتَـمْـضِـي ولا أسْـتَـطـيـعُ الـجُـنـونْ .

كـأنَّ الـمَـجـانـيـنَ يَـأتـونَ هَـذي الـحَـيـاةَ وهُـمْ يَـمْـلِـكـونَ عُـقـولاً بـهَـا وَسْـوَسَـاتٌ تَـزِيـدُ مَـعَ الـسَّـنَـواتْ .

دَخَلْتُ إلى عُزْلَةٍ أهَّلَتْنِي لأُصْبِحَ مِنْهُمْ إلى أنْ تَوَهَّمْتُ أنِّي انْضَمَمْتُ إلَيْهِمْ فصِرْتُ كَمَنْ يَتَجَوَّلُ داخِلَ كَهْفٍ ولَكِنَّنِي لَسْتُ أمْلِكُ أوهامَهَمْ، وهواجِسَهُمْ ... هَكَذا بِتُّ أُدْرِكُ أنِّيَ لا أسْتَطيعُ الجُنونْ .

عَلَيَّ الرَّحِيلُ إلى بَلَدٍ أرْتَضِيهِ بِلا نَدَمٍ مَوْطِنًا ... لَيْسَ يَعْرِفُنِي أَحَدٌ في مَسَافاتِهِ وأنا أتَلاشَى غَريبًا وحَوْلِي بِلادُ الثُّلُوجِ تَلوحُ بِغَيْرِ نِهايَهْ .

لَسَوْفَ أحاوِلُ أنْ أتَعَلَّمَ أسْرارَهُمْ ، وأَخوضَ أَعاجيبَهُمْ . سأظَلُّ هناكَ مُقِيمًا وقَدْ لا أَعودْ .

سأنْسَى سِنينَ الثَّراءِ ، وأُخْفِي عَنِ النَّاسِ بَعْضَ تَفاصيلِ عُمْرِيَ مُنْدَمِجًا بالمَصائِرِ دونَ ارْتِباكٍ ، ومُحْتَمِيًا بالصَّداقَهْ .

أرانِي أنامُ وأصواتُ بَحْرٍ تُحاصِرُنِي ، والسَّفِينَةُ إذْ تَتَباعَدُ عَنْها الشَّواطِئُ بَيْتِي ، وثَمَّةَ مَوْجٌ يَجيءُ لِيَغْدُوَ مُنْدَمِجًا بالسَّفِينَهْ .

هو البَحْرُ مُتَّصِلٌ بكِياناتِهِ . يَتَطَهَّرُ في كلِّ يَوْمٍ بأمواجِهِ . إنَّهُ كائِنٌ مِنْ شُرودْ .

إذا ما حَلَمْتُ وحَوْلِي ظَلامٌ مِنْ الماءِ لاحَتْ نُجومٌ قَدِ ائْتَلَقَتْ في سَماءٍ قَرِيبَهْ .

وجاءَتْ مَعَ الرِّيحِ وَسْوَسَةٌ ... إنَّ مِصْرَ بِها غُرْبَتي ، وبِها أثْقَلَتْني اللَّيالي المُخيفَهْ .

كأنِّي أعاتِبُها برَحيليَ عَنْها . كأنِّي أعانِدُها فأصيحُ : ذَهَبْتُ .. ولا لَنْ أعودْ .

تَبَدَّدَ في اللَّيْلِ صَوتُ بُكائي . أنا لَسْتُ شَيْئًا ، ولَيْسَ ذَهابي سِوَىٰ وَرَقٍ آخِذٍ في السُّقوطْ .

سَمِعْتُ طُيوراً تُقاوِمُ ما حَوْلَها
مِنْ ظَلامٍ فقُلْتُ لَسَوْفَ أَعودُ
إذا مَا تَباعَدْتُ عَنْ رَغْبَتِي في
الجُنونْ .

وبَعْدَ شُعورِي بأنِّي تَخَلَّصْتُ مِنْ
لَعَنَاتِ القَرابَهْ .

وبَعْدَ انْدِمَاجِي بهَذا الوجُودْ .

من أكتوبر 2011 حتى يناير 2012

***

أعمال الشاعر عادل عزت

	تاريخ الطبعة الأولى
١- المتصوفون الشعراء في الزمن العصيب	1983
٢- اختباء النور	1988
٣- العرب القدماء	1990
٤- هواجس الشاعر المقتول	1990
٥- السبعة	2000
٦- ظلام المرسم	2006
٧- البيت المسكون	2009
٨- قصائد الفاني الأبدي	2010
٩- الهجرة بعيداً عن عواصف الحجاز	2011
١٠- أعوام من الإسراء	2012

دواوين الشاعر عادل عزت على الموقع

www.adelezzat.com

السلام للطباعة
ت : 22989714 - 22960665 -22978425
فاكس : 22989251